

أقوال وحقائق

١ - أقوال ضد عصر السلاطين:

كتب البعض ضد عصر السلاطين وخاصة الأجانب^(١)، ودون ذكر الأسباب، ومنهم ذكر بعض الأسباب غير المقنعة، وتجد لدى البعض كراهية واضحة لذلك العصر، فتجد عبد الله الباسط شاهين: (الوارد في قوله مترجماً للصالح نجم الدين أيوب: وهو الذي جلب الممالك إلى مصر وليته ما فعل)^(٢)، وبغض النظر وقبلهم الأيوبيون ليسوا من العرب، يذكر أن سبب استقدام الملك الصالح لهم، له قصة ذكرها المقرئزي وهي أنه لما تم إمساك الصالح وسجن، وتفرق الأكراد وغيرهم من العساكر عنه، لم يبق معه سوى الممالك فرعى لهم ذلك وزاد فيهم^(٣).

ذكر سبب العداء لعصر السلاطين بأن العثمانيين الذين أتوا من شرق آسيا، واستوطنوا الأناضول، وأنشأوا الدولة العثمانية، والتي حاولت بسط سيطرتها على البلاد العربية، كان السلاطين يحكمونها بتوكيل من خليفة المؤمنين العباسي في مصر، ذلك العداء الذي استمر زهاء قرن ونصف القرن، ويتعاون من الأوربيين في شراء الأسلحة والمدافع، استطاعوا احتلال البلاد العربية، والقضاء على الخلافة الإسلامية العربية العباسية وتلك الحروب ومقاومة السلاطين الشراكسة أفرزت كراهية العثمانيين للشراكسة، فبمجرد دخولهم مصر أنشاء عودتهم أخذوا الكتب القيمة الموجودة في المكتبات المصرية، وشوهوا البعض منها، وأتلفوا بعض الصفحات، حتى الصناعات وأصحاب المهن ساقوهم معهم إلى استامبول، وفرضوا اللغة التركية لغة رسمية للدولة، وبالطبع كافة الكتابات بعد سيطرة العثمانيين ظهرت لتكتب بأن حكمهم هو الصحيح والشرعي والعدل وأن سابقهم كفرة ظالمون، وتأمّر بعض الكتاب العرب بالأتراك لسبب ما وعلى الأرجح شخصي. ولا

١ - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ١٣ - ٢٠.

٢ - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص ٢٩.

٣ - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص ٢٩ - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ١٦٦.

تنس بأن العثمانيين سيطروا على البلاد العربية قرابة أربعمئة عام وتلك الفترة كافية لتأثر البعض بهم وبأقوالهم^(١) ، أو على الأقل التملق إليهم.

سبب آخر لكره العثمانيين للشركس يتجلى في الحروب القفقاسية الروسية لمواقفهم غير الصحيحة - أي العثمانيون فيما بعد - مع قياصرة الروس على تهجير الشركس عن موطنهم الأصلي وتشتيتهم إلى أكثر من خمسين دولة في العالم حالياً. ولكن في كل بقعة وصلها الشركس - مع أن العثمانيين وضعوهم في أمكنة متفرقة وفي أمكنة غير آمنة كما سميت وقتها ، ومع كونهم مهجرين - كانوا يتميزون بأخلاقهم ومظاهر حياتهم الاجتماعية والمعيشية ، كما أنهم أينما حلوا كانوا يفرضون احترامهم وتقديرهم ويشكلون طائفة متفوقة رغم فقرهم^(٢) ، ومع وصولهم حديث بعض الأجانب بسبب عدم تمييز المواطنين بين الشركس والأتراك وغيرهم. ولكن بعد فترة حدث الوفاق وأصبحوا كأهل البلد يعملون ويعيشون معاً بأمان وسلام.

كان للأجانب أغراض ضد السلاطين وزمنهم حيث كانوا يحملون بين ضلوعهم ضغائن لعدم تمكنهم من وصولهم إلى آمالهم في استملاك الشرق^(٣). يكتب البعض عن عصر السلاطين بأن أعمالهم الخيرية من بناء المساجد والمدارس وأعمال العمران الكثيرة بأنهم لم يكونوا يقصدون منها سوى التكفير عن سيئاتهم^(٤) ، ولكن ما هي السيئات التي يقصدونها؟ هل هي دفاعهم عن الوطن ضد أعتى الأعداء التتر والمغول والصليبيين؟ ألم يكن بمقدورهم أن لا يبنوا من تلك العمران الباقية إلى الآن؟ طالما وكما يقولون أنهم كانوا هم المسيطرين ، وكما قيل: (إذا ظهرت العشرية من القهر والاستبداد فإنهم لا يشعرون بلذة السلم والإخاء ما لم ينتج عنها من ارتياح الضمير الإنساني ، فالراكب لا يشعر بألم الماشي)^(٥).

١ - موسوعة تاريخ القفقاس والجركس ص ٩.

٢ - موسوعة تاريخ القفقاس والجركس ص ١٠.

٣ - مصر والشراكسة ص ٤٦.

٤ - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ٦٥ مصر والشم في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٢٤٨.

٥ - عاد ولهود ص ٨٥.

وبعد لا بد أن نفصل النقطتين الهامتين التاليتين:

أ. المصادر للمشاريع العامة:

يذكر في الكتب أن السلاطين لم يمارسوا المصادر ولم يفكروا بذلك إلا حين الضرورة، وأقصد بذلك حين رفض الناس بيع الممتلكات الخاصة بهم للأعمال الخيرية العامة للناس. فكان السلاطين والأمراء غالباً ما يشترون تلك العقارات بالمال سواء كان خاصاً لعمل لهم، وكمثال على ذلك كان لنائب الشام تتكز دار تسمى دار الذهب من أغلى دور دمشق، وكذلك تساوي نصف مليون درهم، وحينما أراد تتكز شراء بيت مجاور ليلحقه ببيته في دمشق طلب منه صاحبه مبلغ أربعين ألف درهم وهو مبلغ مبالغ فيه كثيراً ومع ذلك دفعه ثمناً له. وهذا مثل أورده وهو ليس المقصود في موضوعنا المرافق العامة، فمثلاً اشترى تتكز قناة بمبلغ خمسة وأربعين ألف درهم لجلب الماء إلى مسجد جديد في القبيبات^(١).

باستطاعة النظام الاستيلاء على الممتلكات لتوسيع الأعمال العامة في الدولة مثل التحصينات الحربية، وكانت تدفع التعويضات لأصحاب الممتلكات المصادرة، وقد كان يضطر للضرورة القصوى أيضاً الاستيلاء على أبنية بقصد هدمها للحصول على المواد منها، مثلما حدث لأعمال قناة القاهرة، وكذلك لبناء قلعة حلب لتأمين الحجارة، ومثل هذه الحالات يتطلب إنجازها السرعة غالباً بسبب الحرب أو أي كارثة محتملة^(٢)، وكانوا دائماً يعودون إلى الشرع والقضاة لمعرفة صحة مطابقة الشرع لذلك، ولكن كنت تجد البعض يعارض بحجة أن هذا لا يتوافق مع المذهب الفلاني، وهذا يخالف ذلك المذهب و (في مثال واحد كان الشهود المالكية مستعدين للاعتراف أن للدولة حق إجبار المالكين على بيع ممتلكاتهم عندما تدفع التعويضات لهم وذلك من أجل تحسين أحد المساجد، ولكن الشافعية تمسكوا بوجهة النظر المعاكسة ومفادها لا يمكن إجبار المالك غير الراغب بذلك، أن يعطي ملكيته بأي حال من الأحوال، واعتبر العلماء أخذ المنازل رغماً عن إرادة أصحابها،

^١ - مدن الشام في العصر المملوكي ص ٣٩٧.

^٢ - مدن الشام في العصر المملوكي ص ١١٠.

أو أخذ الأوقاف دون إجراءات مناسبة أعمالاً شرعية، ولا تذكر التواريخ أسباب وجهة النظر المعارضة هذه^(١).

كان لا بد من استملاك بعض الممتلكات كحل وحيد اضطراري لتنفيذ الأعمال العامة في الدولة، وكان السلاطين والأمراء يساهمون في بناء الدولة وممتلكاتها العامة بالمال والنفوس (وشكل الجنود جيشاً دائماً من العمال لتحقيق مشاريع الإنشاء الرئيسية التي تطلبت وجود أعداد كبيرة من العمال غير البارعين، وغالباً ما أُنيط بالأمراء مهام تنفيذ إنشاء مجموعات القنوات والجسور والقلاع، أو ترميم الطرقات، وطلب منهم تنفيذ المشاريع الإنشائية مع جنودهم)^(٢).

تجد هناك في بعض الكتابات أشياء مثل (كان الرأي أن جميع الأراضي تعود ملكيتها من حيث المبدأ للسلطان، وأعطى أصحاب الممتلكات في عام ٧٣٥هـ - ١٣٣٥م نصف قيمة ممتلكاتهم للحصول على أرض لإقامة أحد المساجد، حيث اعتبروا أن ملكية الأبنية تعود لأصحابها، أما الأرض فهي للسلطان، وبالفعل بين ملكية الأرض والبناء في الضريبة الإسلامية والتطبيقات والإيجارات، وكانت رسوم الأرض والبناء عناصر منفصلة عن الممتلكات، وبما أن الأمراء كانوا موظفين للسلطان فقد رأوا من حقهم الاستيلاء على الأراضي والأبنية لتحقيق أهداف عامة)^(٣).

تسمع حالياً أيضاً في موضوع الأراضي في سورية بأن هذه الأرض أميرية لها سند تمليك وتعود ملكية الأرض للدولة والناس يستثمرونها، وتلك أرض ملكية لها طابو أي تعود ملكيتها لأصحابها حصلوا عليها عن طريق الشراء أو الوراثة^(٤)، وأيضاً في القوانين السورية هناك فرق توزيع الحصص للورثة حسب نوع الأرض فالأرض التي لها طابو رسمي مثل مدينة دمشق مثلاً ومسجلة بالسجلات العقارية ويتم توزيع الحصص حسب الشريعة الإسلامية للمذكر مثل حظ الأنثيين، أما الأراضي الأميرية توزع

^١ - مدن الشام في العصر المملوكي ص ١١١.

^٢ - مدن الشام في العصر المملوكي ص ١١٢.

^٣ - مدن الشام في العصر المملوكي ص ١١٢.

^٤ - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ٢٣٠.

الحصص بالتساوي بين الذكور والإناث والسبب يعود إلى عصور فتح بلاد الشام. فحين فتحت دمشق اختلف في طريقة فتحها بالقوة؟ أم بالاستسلام؟ وفي الحالتين لمالك الأراضي الحق بها إذا لم يحارب، ودفع الجزية فيبقى مالكاً لأرضه، وهذا ما حدث فلم توزع أراضي بلاد الشام للفاتحين المسلمين، واستمر الوضع لفترة، وبدأت الحملات الصليبية على بلاد الشام لطرد المسلمين منها، وبالمطبع تم الاتصال مع أولئك الروم الباقين في بلاد الشام، ولكن انتصر العرب على المقاومين من بلاد الفرنجة فخاف من بقي في بلاد الشام من الروم وترك أرضه ورجع مع الجيش الفار والمنسحب من المعركة. وهنا كانت مشكلة الأرض، فلا تعتبر من الغنائم ولا توجد ورثة لها، فكان الرأي النهائي إلحاق الأرض بالدولة التي يمثلها الأمير فسميت بالأميرية، وأصبح التصرف بها عائداً للأمير مهما تغير، أي أن الأرض لا تورث لأولاد الأمير. وجرت العادة بأن يعطي أمير الشام الأراضي بالأجرة مثلاً على أن يعطي المستأجر منها للدولة أو بيت مال المسلمين عشر الإنتاج فسميت الأراضي العشرية، وقد يستغل أحد القواد الأرض مقابل أجرة أي مقابل الراتب^(١)، وبعد احتلال العثمانيين لبلاد الشام استمر الوضع على حاله فكانت تعطى سندات يذكر فيها أن الأرض هي تابعة للأمير أو الوالي التركي، ويذكر اسمه وأن فلاناً يستغلها ويحدد أبعادها، وكان يدفع المواطن الفلاح عشر قيمة الإنتاج لذلك الأمير أو الوالي. وبعد ثورات الاستقلال العربية صدر مرسوم لتسجيل الأراضي بالسجلات العقارية فسجلت بعض الأراضي في بعض المدن السورية ثم توقفت إثر الحروب والاعتداءات المتكررة على البلاد، ومن هنا كان التمييز بين ذات الطابو وتلك الأراضي التي تم تسجيلها في السجل العقاري، وبين أرض أميرية لها سند تملك، وبالعودة إلى عصر السلاطين تجد أن قرار تقييم الأرض وتقدير قيمتها يعود إلى القضاء عند استملاك أية قطعة من الأرض ويقال الأرض بنصف القيمة مثلاً. والسبب هو اعتبار الأرض

١ - الدولة المملوكية التاريخ السياسي الاقتصادي العسكري ص ٩٨ الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص ٥٠ الممالك ١٧١.

ملكاً للدولة، أما ما عليها فهي لصاحبها، فيكون التقدير على ما يوجد على الأرض من بناء وأشجار وليس على الأرض نفسها.

ب. الأمن الداخلي والخارجي:

كانت دولة السلاطين مرتكزة على الدفاع عن البلاد من الناحية الخارجية بالدرجة الأولى، وكانت الأمور الداخلية متروكة للمواطنين من القضاة ورجال الدين والمختصين بالتعليم وغيرها، وكان على رأسهم في ذلك العصر العلماء فهم قادة المجتمع العربي في ذلك العصر. ولكن كان البعض يحاول أن يشط عن الطريق القديم أو يرفض التقيد بأوامر العلماء وقادة البلد أو يقوم البعض بأعمال تخل بالأمن، فكان العلماء يلجأون إلى السلاطين والأمراء للدفاع عن الجماهير وحفظ الأمن مع أن العلماء كانت علاقاتهم مع الجماهير مباشرة ويستمدون سلطتهم من الجماهير، وكانوا كحكام للمدن. فمع ذلك احتاج العلماء لمساعدة السلاطين والأمراء (الغرياء لحماية الجماهير واعتمد العلماء على نظام عسكري لتحقيق الانضباط في المدن وقمع الهرطقة ومقاومة العنف الذي سببه المجرمون والمتمردون، حتى الجماهير أحياناً، وفوق كل ذلك، فقد اعتمدوا على النظام للدفاع ضد خطر تخريب المجتمع أو تهديم عقيدته، من قبل الغزاة الأجانب حيث كان من المحتمل أن يكونوا من الوثنيين أو الهرطقة أو من المسيحيين الكفرة)^(١)، على تعبير الكاتب.

كان العلماء القياديون سلبين في الدفاع عن وطنهم وكانت (الجماهير المتدينة مستعدة للتبرؤ من المماليك في حال تعرضهم للهزيمة إذا وقعت عليهم غزوات فكرية، وأن تقبل المنتصر بمثابة صاحب الحق ليكون سيدهم الجديد، وفاق الإخلاص للنظام الجيد للمجتمع جميع أنواع الولاءات، وأخفق علماء المدن السورية في عدد من المناسبات في مساعدة المماليك للدفاع عن دولتهم، ورأى العلماء أن من واجبه الاستسلام للفتح والتعاون معه خشية وقوع الخراب الذي ستسببه الحرب والفوضى الداخلية الممكن حدوثها، بسبب الهزيمة العاجلة)^(٢).

^١ - مدن الشام في العصر المملوكي ص ٢٠٦.

^٢ - مدن الشام في العصر المملوكي ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

تجلى ذلك بشكل واضح في ثلاثة مواقف حربية. الأول حينما أتى قازان واكتسح المغول بلاد الشام فما كان من العلماء والقياديين وطبقات الموظفين إلا إرسال وفد لقازان للتوصل معه لحل، وقدموا له الاعتراف كحاكم وسيد مطلق. كانت المرة الثانية حينما غزا تيمورلنك سورية عام ٨٠٣هـ فكان اجتماع الوجهاء والأغنياء والتجار وعدد من العلماء وعلى رأسهم القاضي ابن مفلح الحنبلي وطلبوا الاستسلام، ولم يكتفوا بذلك بل كان ابن مفلح يقنع الناس بالاستسلام ووافق على دفع فدية كبيرة للمحتل، وأصبح هو وبعض الموقعين على صك الاستسلام جباة لتيمورلنك يجمعون الفدية الكبيرة التي طلبها^(١)، بل صادر الممتلكات الخاصة للمواطنين، والتي تركها الناس الهاربون من العدو. وكانت الحجة في المرتين السابقتين لتسويق الاستسلام هي تفاذي القتال وحقن الدماء ومنع النهب، أما السبب الحقيقي الذي دفع ابن مفلح لاتخاذ هذا الموقف هو حماية أسرته وعائلات أقاربه وخاصته، ولكن ماذا كانت النتيجة؟ هل استطاع فعلاً أن يحقق شيئاً من الأهداف المعلنة أو المستترة؟ طبعاً لا. فقد نهب الغازي ضواحي المدينة: الصالحية وداريا والمزة، ونهب داخل المدينة وقلعتها فنهبوا الأشياء الثمينة فيها، وحرقوا المدينة وأسروا العديد من القادة وسيق الحرفيون وسبيت النساء، واتسم ما فعله أولئك بقلة التبصر، مع أنهم لم يشعروا بالخزي، وكانت النتائج مشؤومة على الناس كافة.

قبل وجهاء ذلك العصر العرب الحل السلبي لثالث مرة أيضاً حينما وصلها السلطان سليم فلم يحاربوا الفاتحين الجدد على حد قولهم واعترفوا كما في السابق بالفاتح الجديد، وكانت نتيجتها تأخر تقدم البلاد واحتلال العثمانيين للبلاد العربية أربعمئة عام^(٢).

^١ - قيام دولة المماليك ص ١٤٠ - ١٤١ - ١٤٢.

^٢ - مدن الشام في العصر المملوكي ص ٢٠٧ - ٢٠٨ - الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ج ٢ ص ٩٩ - ١٠٠.

جمع ابن مفلح للمغول الأموال وصادر أموال الناس وهو عالم إسلامي بارز في ذلك العصر، بينما كان يفتي بعض العلماء المسلمون في ذلك العصر بعدم الاستيلاء على المنازل لتوسيع شارع أو تنظيم قناة أو بناء جامع مع دفع المبالغ مقابلها، بل أكثر من ذلك كان العلماء يفتون بعدم أخذ أموال الناس في حالة الدفاع أو مقاتلة العدو بحجة أن على السلاطين تدبير ذلك ناسين أن الأرض أرض عربية، وينسون في تلك اللحظات الحقائق ويطالبون غيرهم بالدفاع، بل بما يلزم من تحصينات وأسلحة وما شابه ذلك، وكل يفتي ويؤكد أن فتواه صحيحة وكثيراً ما كانت الفتاوى تختلف ولتأكيد ذلك نذكر (رفض القضاة التصديق على الضريبة التي فرضها السلطان عام ٨٠٣هـ - ١٤٠٠م - حينما غزا تيمورلنك سورية - وذلك لمصادرة أموال الأوقاف والتجار ليدفع متطلبات الجيش وإنهاء المشروع)^(١).

٢ - مدح عصر السلاطين:

كتب العديد مادحين عصر السلاطين، ولا يمكن توضيح كافة الأمور بهم إذ أن ذلك يتطلب العديد من الكتب، ولكن لا بد من توضيح وسرد بعض ما كتب عن عصرهم.

أ. إحياء الخلافة الإسلامية:

بعد انهيار الخلافة الإسلامية العباسية في بغداد، تشتت المسلمون، وحتى قبل انهيار الخلافة العباسية في بغداد ظهرت هناك دويلات إسلامية متفرقة، وطمع بها المغول، وكانت معركة عين جالوت كحد فاصل لغزو المغول وكسر كبريائهم، وبرز حينها أول سلاطين الشراكسة بيبرس، وهو الذي أحيا الخلافة الإسلامية العباسية في مصر^(٢)، والتي استمرت لقرون إلى أن قضى عليها العثمانيون بعد ذلك،

^١ - مدن الشام في العصر المملوكي ص ٢١٨.

^٢ - البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٣٠ - ٢٣٣ - ٢٣٩ العصر المماليكي في صر والشام ص ٣٥١ مصر في دولة المماليك البحرية ص ١٨٠ - ١٨٠ - ١٨١ الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ١٠ النظام النقدي المملوكي ص ٢١٥ الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص ١٥ - ١٧ - ١١٤ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٧ ص ١٠٩ - ١١٨ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ١٩٣ - ١٩٥.

وأصبحت في دولة السلاطين الخلافة للمسلمين في مصر فصار لهم نفوذ روحي على كل بلاد الشام كافة مع أن السلطان السياسي الفعلي كان بيد بيبرس ومن بعده باقي السلاطين الذين استلموا الحكم^(١).

ب. النهضة العلمية:

عرف السلاطين بأن لا بد من نهضة علمية لتنهض البلاد من كبوتها، لذلك شجعوا التدريس والتعليم فبنوا المدارس والمعاهد العديدة، واستقدموا وجلبوا العلماء من كافة أنحاء العالم، وكان الطابع العام للتعليم وبشكل رئيسي دينياً مع نسيان كافة العلوم الأخرى وخاصة الطبية إذ أنشئت مشايف للمعالجة والتدريس، ومما يدل على النهضة الروحية والثقافية والعلمية ما تركوه للأجيال فيما بعد من خزائن الكتب ودورها بنفائس المؤلفات من جليل الآثار والتراث الضخم في مختلف العلوم والفنون^(٢).

ساهم السلاطين في ميادين عديدة لا تنسى، والشيء الأكثر شهوة لهم (هو) السيادة العالمية في منطقة الشرق الأوسط بصفة خاصة وفي العالم الإسلامي على وجه العموم، هذا عدا النهضة الفنية التي خلدت تاريخهم ولم تزل شواهدهما باقية إلى اليوم، ثم إن الاتساع الإمبراطوري لمصر، بلغ أقصاه في عهد هذه الدولة، وأن مصر - لكونها مركز الدولة - غدت في زمنهم قلب العالم الإسلامي والثقافة الإسلامية^(٣)، كما بلغ التاريخ لديهم العصر الذهبي الثاني عند العرب^(٤).

ج. التجارة والاقتصاد:

لكي تستمر النهضة التي حدثت وعرفت في عصر السلاطين كان لا بد من توفير الدخل اللازم، وكان اعتمادهم على الاقتصاد ولكون التجارة ذات مردود

١ - الحياة الأدبية في العصر المملوكي والعثماني ص ١٣ - ١٤ الروض الزاهر في - سيرة الملك الظاهر ص ٩٩ - ١٠٠ - ١٠١ تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ج ١ ص ١٨٥ - ١٨٩ الدولة المملوكية التاريخ السياسي الاقتصادي العسكري ص ١١ النظام النقدي المملوكي ص ٢١١.

٢ - الحياة الأدبية في العصر المملوكي والعثماني ص ١٧ مصر في دولة المماليك البحرية ص ١٨٩.

٣ - مصر في دولة المماليك الجراكسة ص ٥٠.

٤ - محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني ص ٤.

جيد لجأوا إليها لكون أوروبا بحاجة لبضائع الهند، ولم يكن قد اكتشف رأس الرجاء الصالح بعد، ولا بد من مرور البضائع عن طريق البحر الأحمر^(١)، فتمكنت دولة السلاطين التحكم بالأرباح والضرائب المفروضة، ولم يكتفوا بذلك بل شجعوا على أعمال التجارة التي وفرت السيولة المالية بين أيديهم (وصارت حضارة مصر آنذاك مضرب الأمثال فمفاتيح التجارة العالمية بين الشرق والغرب في يد الشعب المصري)^(٢)، تلك التجارة التي عادت بالفائدة لأفراد الشعب العربي وعلى الأمراء والسلاطين لكونهم كانوا مسيطرين على المنطقة التجارية التي كانت ملتقى التجارة العالمية^(٣).

د. النظام في عصر السلاطين:

تقدم وعمران البلد كما ذكرنا يتطلب العلم والأموال، ولكن لا يكفي فلا بد من النظام الدقيق لإعطاء الحق ولوضع ضوابط^(٤)، وعرف السلاطين بأنهم (أدق رعاية على الولايات وأشد في فرض القانون والنظام وقد استمرت دمشق تنمو وتتطور في ظل النظام الجديد)^(٥)، فتوسعت دمشق التي كانت ثاني مدينة في ذلك العصر بعد القاهرة، فتوسعت الضواحي وباقي مدن بلاد الشام^(٦)، ومصر وما تبعها فكان لدولة السلاطين (ونظامهم دور حيوي ليؤدوه في هذا النظام السلس للعلاقات السياسية... بل بإمساك جميع الخيوط الاجتماعية الأساسية بأيديهم وأنشأوا روابط مباشرة مع العلماء وذوي المراتب العالية والصغيرة، ومع التجار، ومع العامة من الناس، من الأحياء والأسواق، وأخيراً مع طبقة الرعايا في المدينة)^(٧)، كما ترى كان نظامهم المحكم يتصل إلى الكبير والصغير، والعالم والجاهل، والغني

^١ - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص ١٣٤.

^٢ - الحياة الأدبية في العصر المملوكي والعثماني ص ١٧ مصر في دولة المماليك البحرية ص ٢١٠.

^٣ - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ٩٢ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٣٩٤.

^٤ - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ٤١٧.

^٥ - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ٦٨ — ٦٩.

^٦ - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ٤٦.

^٧ - مدن الشام في العصر المملوكي ص ٣٩٧. مدن الشام في العصر المملوكي ص ٢٨٥.

والفقير وشهدت دولتهم (نظاماً إدارياً بالغ الدقة، ونهض بذلك النظام مجموعة كبيرة من الموظفين. وقد انقسم الموظفون إلى قسمين كبيرين، أرباب السيوف وأرباب القلم)^(١)، فقد استعمل السلاطين رجال الدين في إدارة الشؤون الدينية والمدنية في دواوين دولتهم^(٢)، أما الحياة الرسمية في البلاط السلطاني فقد اتصفت بالتقليد وأحييت بمختلف مظاهر التضخم والتعظيم حتى وصفها بعض الكتاب المحدثين بأنها تطلب من قواعد البروتوكول ما يفوق أعظم بلاط في عصورنا الحديثة^(٣)، وكذلك حفلات الاستقبال للضيوف والكبار والسفراء العظام وبشكل رسمي وما يتبع الضيوف من الإقامة^(٤)، وكان كذلك قبل أن يتشرف أي رسول بالدخول على السلطان يبين رجال الحاشية للداخل قواعد البروتوكول السلطاني من ضرورة تقبيل الأرض أمام السلطان^(٥).

عرفت دولة السلاطين أيضاً نظام جوازات المرور طبقته بدقة فاستطاعت (بواسطة تلك الجوازات تسجيل المسافرين، وبالتالي معرفة تاريخ دخولهم وخروجهم بالإضافة إلى المعرفة الدقيقة لأموالهم وبضائعهم، وبذلك كانت تستوفي الضرائب منهم غير منقوصة)^(٦).

هـ. القانون فوق الجميع:

كان ينفذ ويحكم في الدعاوى القضاة وجلهم من العرب، وكانت بالطبع في ذلك العصر القوانين المطبقة مستمدة من الشرع الإسلامي الحنيف. ولكن الجدير بالذكر أن القوانين والأحكام تنفذ على الجميع وكان القانون هو السائد حتى على السلطان ففي أي دعوى أو شكوى على السلطان يطلب حضوره للقضاء،

^١ - العصر المالكي في مصر والشام ص ٣٦٥ دمشق بين عصر الماليك والعلمانيين ص ٢٢. مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٣٠٠.

^٢ - صور ومظالم من عصر المماليك ص ١١٠.

^٣ - مصر في دولة المماليك والمماليك البحرية ص ١٣٢.

^٤ - الطرب في العصر المملوكي ص ٢٩ مصر في دولة المماليك والمماليك ص ٦٥ - ٦٦.

^٥ - مصر في دولة المماليك والمماليك البحرية ص ١٣٤ صور ومظالم من عصر المماليك ص ٦٧.

^٦ - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص ٢٥٠.

ويتساوى الخصم وينفذ الحكم الصادر^(١)، كمثال على ذلك نذكر ما ذكره ابن كثير في تاريخه من محاسن بيبرس الكثيرة (إنه - أي السلطان بيبرس - حضر إلى دار العدل في محاكمة بسبب بئر بين يدي القاضي تاج الدين بن بنت الأعز فقام الناس له لما جاء سوى القاضي فإنه أشار إليه أن لا يقوم فقام هو وغريمه بين يدي القاضي وتداعيا وكان الحق بيد السلطان وله بينة عادلة فانتزعت البئر من يد الغريم وهو أحد الأمراء)^(٢).

و. صفات العصر:

لقد مدح الكثيرون من الكتاب عصر السلاطين فليل عن عاصمته القاهرة بأنها عروس الشرق باتساعها وعظمتها وجمال مبانيها وجمال قصورها وازدهار سكانها من كل جنس ولون، وكان يجلب ما في سائر أقاليم الأرض من كل شيء غريب^(٣)، وتجد كتابات حديثة تمدح ذلك العصر أيضاً. كما كانت الكتب تتناول صفات أولئك الحكام أيضاً فمما قيل (أقاموا فيها دولتهم الناشئة الفتية، وهم قوم أشداء، ومارسوا الحروب والفروسية، واعتادوا الخشونة، وبعد الكثير منهم عن الترف وأخذوا يصبغون ملكهم بصبغة دينية... ودفعوا العلماء إلى نشر العلم بالتدريس والتأليف، وكان لهم في ذلك ومن انتصاراتهم على التتار وعلى الصليبيين في أرض الشام مفاخر ومآثر لا تبلى، وزاد في عظمة أمرهم في عيون المسلمين أنهم أصبحوا حماة الخلافة الإسلامية المكلومة وملاذ الأمم العربية المهزومة، ومقصد الأحرار والعلماء من كل مكان)^(٤)، وقيل (كانت دولتهم أرقى دولة في عصرها)^(٥)، وقيل كانت دولة المماليك عهد الازدهار الدائم، عهد حضارة وعمران^(٦)، واستمرت لنهاية القرن تقريباً، ثم تلت فترة الأزمات التي سادت في

١ - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ٤١٧ - ٤١٨.

٢ - الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ج ٢ ص ٦٣.

٣ - الطرب في العصر المملوكي ص ٤٤.

٤ - الحياة الأدبية في العصر المملوكي والعثماني ص ١٤ - ١٥.

٥ - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص ٧.

٦ - مصر والشراكسة ص ١٣٢ دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ٤٦.

النصف الأول من القرن الثالث عشر . مع أزماتها . فترة هادئة مزدهرة ومتألفة في الإنجازات الثقافية والاقتصادية ، كما انتهت هذه الفترة الأكثر روعة في حوالي عام ١٣٨٨م^(١).

ز. الحضارة العربية:

اعتبر العديد أولئك السلاطين أنقذوا الحضارة العربية^(٢) ، من التدمير الشامل بانتصارهم في شقحب ، كما يؤكد أكرم العلبي في كتابه معارك المغول الكبرى في بلاد الشام. إذ لو انتصر قازان على السلاطين لعاد الصليبيون إلى دويلاتهم تمهيداً لطرد العرب نهائياً من الشام ومصر إلى الجزيرة العربية كما كان يجري في الأندلس.

لهذه الأسباب تعد معركة شقحب ، فتح الفتوح بالنسبة للشام ومصر لأن الظروف كلها كانت تنذر بالهزيمة ، ولكن الله سلم^(٣).

^١ - مدن الشام في العصر المملوكي ص ٣٩.

^٢ - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص ٧ - ١٥.

^٣ - انتصار الوحدة في شمال الففاس ص ٥٧.